تفسير القرآن الكريم يعني بذل الجهد في الكشف عن مراد الله تعالى من كلامه، حتى يعرف الناس ما يوجهه الله تعالى لعباده من خطاب سواء اشتمل على تحليل أو تحريم، أو سنن كونية، أو سنن في إقامة الدول واستقامة المجتمعات، أو الكشف عن الحكم المبثوثة في القرآن حتى يستفيد الناس منها جميعا، مسلمهم وكافرهم، ويسمى الكتاب الذي ضمن صحائف القرآن التي كانت متناثرة المصحف، لأنه يحوي صحائف القرآن، فآيات الله تعالى هي القرآن، وجمعها في كتاب واحد يسمى مصحفًا.

نحو تفسير حضاري للقرآن الكريم

د.مسعود صبري

القرآن هو دستور المسلمين في حياتهم، بل عند التحقيق هو دستور البشرية، لاشتماله على مبادئ تجعل الحياة أكثر استقامة من خلال القوانين والقواعد التي تحكم السلوك البشري، وتلك القواعد التي تعد أطرًا عامة لتنظيم العلاقة بين الحكومات وشعوبها، والدول فيما بينها، أو ما يعرف بالعلاقات الدولية، وكذلك العلاقات الأسرية فيما بين الزوج والزوجة والأبناء والأجداد والأصهار والأقارب والجيران والزملاء والأصدقاء، كما أن فيه قواعد تنظم الحياة الاقتصادية بدءا من التعامل مع الموارد الطبيعية، وضوابط الكسب والعمل والبيع والشراء، وقواعد العمران الحضاري، وتلك القواعد لا يستقل بها المسلمون دون غيرهم، إنها قواعد صالحة لأن يطبقها المسلم والكافر فتستقيم حياة الأفراد والشعوب والدول، ولو لم يكونوا مؤمنين بهذا القرآن، إذ القرآن هو آخر كلمة الله تعالى لأهل الأرض جميعا، ومن هنا وجدنا خطاب الله تعالى للبشرية فيه، كما هناك خطاب الله تعالى للمسلمين، وهناك مستوى ثالث هو خطاب الله تعالى لغير المسلمين، وعلى كل، فعند التحقيق سيجد كل إنسان خلقه الله تعالى بغيته في هذا القرآن، وإن لم يكن به من المؤمنين.

ولهذا كان من المهم الاهتمام بتفسير القرآن الكريم لمعرفة تلك القواعد والضوابط، واستخراج تلك العوامل الحضارية للبشرية، وإن استصحاب هذا الفهم لجدير أن يولد لنا خطابًا تفسيريًا جديدًا، بل ربما ولد لنا نوعًا جديدًا من التفسير.

مجال الاجتهاد في التفسير

ومن الحكمة أن يدرك الناس أن هناك فرقًا بين القرآن الكريم ككلام الله تعالى، وبين التفاسير التي تناولته، فهي في غالبها جهد إنساني، وإنتاج بشري، في محاولة لفهم مراد الله تعالى من كلامه، ويستثنى من ذلك ما فسره الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ما كان ظاهر الدلالة ونحوه مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولهذا يبقى للقرآن قدسيته، ويبقى للتفسير تقديره واحترامه، الذي لا يمنع من نقده من ناحية، والإفادة منه من ناحية أخرى، ولكن هذا النقد لا يكون بالتشهي ولا بالهوى، ذلك أننا نتحدث عن علم، وكل علم له قواعده وأصوله، فكل من تحصل القواعد والأصول، وصارت عنده دربة التفسير فله حق التفسير، فليس لكلام الأقدمين قدسية ولا كهنوت، ويكون العلم- ومنه تفسير القرآن- رحمًا بين أهله، ومن مزايا القرآن كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم «ولا يخلق من كثرة الرد»، فكلما نظرت فيه العقول مرة بعد مرة، تولد منه معاني لم تكن معروفة من قبل، ليبقى كتاب الله تعالى معجزًا لجميع الأجيال.

ولا شك أن عمل المفسرين قد تأثر- في عديد من الأحوال- بالظروف المحيطة، وربما كان هناك تأثر بالبيئة، وبالعوامل الثقافية والفكرية لكل مفسر، ولهذا وجدنا تنوعًا ضخمًا من التفاسير تعددت أشكالها وألوانها من حيث المنهج العام، ومن حيث التفسير التحليلي للآيات آية آية.

وفي الوقت الذي نقول فيه إن تفسير القرآن من حيث الجملة ليس مقدسًا، وإنه قابل للمراجعة، فإن هذا التفسير

باحث في المركز العالمي للوسطية - الكويت

ليس ملكًا لكل أحد دون امتلاك أدواته، ولا نعني بهذا أن يكون المفسر خريج كلية متخصصة في تفسير القرآن، ولا أن يعرف أنه خريج مؤسسة ترى أن من حقها وحدها امتلاك تفسير النص القرآني، كلا، ولكننا نقصد أن يمكن الذي يريد أن يخوض غمار التفسير نفسه من امتلاك أدوات تلك المهنة والصنعة، وإن لم تكن وظيفته في المجتمع وظيفة دينية، المهم أن هناك معايير للصنعة كباقي الصناعات، وتفسير القرآن صناعة من أجلّ الصناعات الفكرية والثقافية.

على أنه من المهم أن ندرك أنه ليس كل القرآن يحتاج إلى تفسير، فهناك آيات لا تحتاج إلى عالم ولا إلى متخصص، فكما أشار ابن عباس- رضي الله عنه- إلى صنوف من التفسير، منها ما يعرفه كل أحد، وذلك أن القرآن هو خطاب الله تعالى لكل إنسان، ومنها ما يعرفه من أحاط باللغة العربية، لأن القرآن نزل بهذه اللغة، وقد كان تفسير القرآن في عصر النبوة قليلا، لأن الصحابة وكذلك التابعون كانوا على درجة فائقة من اللغة، ولكن لما بَعُد عهد الأمة باللغة، وانحدر مستواها عند أبنائها احتاج الناس إلى أن يعرفوا تفسير ما كان يفهمه أجدادهم وسلفهم سليقة دون جهد أو عناء، ومن القرآن ما لا يعرف تفسيره إلا العلماء، وهذا الذي نقول فيه بامتلاك الأدوات كأية صنعة، ومن القرآن ما لا يعرف تفسيره وبيانه إلا الله، وهو عدد قليل جدًا، غالبه يتركز على الحروف المقطعة التي تكون في بدايات عدد من السور، مثل «الم» «حم» «المص» «كهيعص» «الر»، وهكذا، ولا يعني هذا أنه من الأحاجي والألغاز، لأن العلماء تحدثوا عن تلك الحروف، وقالوا: إن المراد منها بيان إعجاز القرآن، وإنه يتألف من حروف العربية التي تتكون منها لغة العرب، ومع هذا فهم عاجزون عن إنشاء آية أو بعض آيات، ولكن القطع بمراد الله فيها لا يعلمه إلا الله تعالى.

وإن كنا نعتبر التفسير لونًا من ألوان الاجتهاد مع امتلاك أدواته، فهناك ما لا

من الحكمة أن يدرك الناس أن هناك فرقاً بين القرآن ككلام الله وبين التفاسير التي تناولته

يدخله اجتهاد أو نقد أو مراجعة، وذلك أن القائم بالتفسير متنوع، أعلاه مرتبة أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وفسر النبي صلى الله عليه وسلم عددًا من الآيات، كان الصحابة رضوان عليهم يسألون النبي عنها، فيجيبهم، وكثير منها مجموع في كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين» للإمام ابن القيم، كما أنها منثورة في كتب التفسير، خاصة ما يعرف منها بالتفسير بالمأثور، كتفسير الإمام ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير وغيرهما، ثم هناك تفسير الصحابة الذين عايشوا الوحي وكانوا أهل لغة بالسليقة، فهؤلاء تفسيرهم مقدم على غيره، ثم يجيء تفسير غيرهم، على أنه من الصواب أن نقول أيضا: إن هذه الأنواع الأول من التفسير يدخلها الاجتهاد أيضا، فتفسير القرآن للقرآن إن كان قطعيًا فلا مجال فيه للاجتهاد، أما إن كان فيه بذل جهد لتوفيق الآيات فيما بينها، فهذا يدخل فيه إعمال العقل مع أدوات التفسير، وكذلك تفسير النبي صلى الله عليه وسلم إن كان قطعيًا، فهو خارج الاجتهاد، أما إن كان كلام النبي صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى شرح وإيضاح فيدخل فيه الاجتهاد من أهله وفي محله.

ولا شك أن إسقاط التفسير على الواقع يحتاج إلى معرفة لفقه الواقع، على أن تكون التفاسير السابقة بمنزلة المراجع والمصادر لبحث مسألة جديدة، فيفيد المفسر منها، ويستبعد ما يراه غير موافق لمقاصد الشريعة وروحها، وما هو بعيد عن واقعنا بما يحافظ على قدسية كلام الله تعالى، وأن ينزّل أحسن المنازل، مع استشعاره أنه حين يفسر القرآن أنه يقول: إن مراد الله تعالى من كلامه هو كذا.

الحاجة إلى التفسير الحضاري

وإذا كان كثير من المفسرين في القديم اهتموا بجمع المرويات، أو ما يعرف بالتفسير بالمأثور، أو أعملوا العقل بأدوات الشرع، وهو ما يعرف بالتفسير بالرأي، ومنهم من اهتم بالجانب اللغوي، فخرجت تفاسير لغوية، وخرجت كذلك تفاسير بلاغية، وتفاسير تهتم بالأحكام التشريعية من بيان الحلال والحرام أو ما يعرف بـ«تفسير آيات الأحكام»، وهناك التفاسير الإعجازية التي تهتم بالإعجاز القرآن، حتى التفاسير الإشارية، التي تهتم بالإشارة والكشف وغير ذلك مما يختص به أهل التصوف، فما أحوجنا إلى تفسير حضاري ينظر إلى مقاصد القرآن، ويخرج لنا قواعد البناء الحضاري والاهتمام بالسلوك البشري في فهم دقيق وعميق، مستوعب لما سبق من تفاسير متنوعة، وعينه على حاضر أمته، يلملم شتاتها، ويضمد جراحها، ويشد من أزرها، فيجد فيه كل مسلم بغيته ودوره في بناء مجتمعه الصغير في بلده، ومجتمعه الكبير في أمته المسلمة، ومجتمعه الأكبر.

وهو تفسير ينطلق من مكانة ووظيفة هذه الأمة بين الأمم، انطلاقًا من تلك الخيرية التي وهبها الله تعالى إياها، والشهود على تلك الأمم، والأدوار المنوطة والوظائف الواجب أداؤها على الأمة من حيث الجملة، ثم تفصيلها على قطاعات المجتمع المسلم المتعددة حتى نصل إلى أن يعرف كل فرد مسلم دوره الحضاري في مجتمعه المسلم، وفي المجتمعات الأخرى، من خلال منهج قرآني يعيد للقرآن دستوريته ومرجعيته بين الأمة بجميع أطيافها، ويعيد النصاب لتلك الأمة بين الأمم فعلًا حضاريًا، واستشرافًا مستقبليًا، وتصحيحًا للمسار، وإصلاحًا للمعوج، وبناء للمجتمعات على أساس من التقوى.

وهذا التفسير- في نظري- يجب أن تتكامل فيه أدوار المفسرين مع الفقهاء مع أهل التاريخ والحضارة والعلوم الاجتماعية حتى يستوي على عوده ويؤتي ثمرته بإذن ربه ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.